حياة أعظم الرسل

مُحَمَّد الكَامِل

مُحَمَّدٌ الكامِل

كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ كَامِلَ الْخُلُقِ، وَقَد خَاطَبَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ : " وَإِنَّـكَ لَعَلَـى خُلُـقٍ عَظِيـمٍ " . فَكَـانَ الْمُصطَفَى عَظِيماً فِى أَخلاَقِهِ ، عَظِيماً فِى رَحمَتِهِ عَظِيماً فِى صِدقِهِ وَأَمَانَتِـهِ ، عَظِيمـاً فِـى حُبِّـهِ لِلْفُقَـرَاءِ ، وَإِحسَـانِهِ إِلَيهِـم ، وَدِفَاعِـهِ عَنهُـم ، وَتَفضِيلِهِـم عَلَـى نَفسِـهِ وَأَهلِهِ .

كَانَ عَظِيماً فى عِلْمِهِ الْكَثِيرِ ، عَظِيماً

فِى ذَكَائِـهِ النَّـادِرِ ، عَظِيمـاً فِـى إِيمَانِـهِ الْقَـوِىِّ، وَثِقَتِـهِ الْكَامِلَـةِ بِـرَبِّ الْعَـالَمِينَ . كَانَت الْقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ تُحِبُّهُ ، وَتَثِقُ بِـهِ ، وَتُصَـدِّقُ كُـلَّ مَـا يَدعُـو إِلَيـهِ ، كَالسَّـيِّدَةِ خَدِيجَةَ مِنَ النِّسَاءِ ، وَأَبِى بَكرٍ الصِّدِّيقِ مِنَ الرِّجَـالِ ، وَعَلِـىِّ ابْـنِ أَبِـى طَـالِبٍ مِـنَ الْغِلْمَان .

الرَّسُولُ مَثَلٌ لِلتَّفَاؤُلِ :

كَانَ عَظِيماً فِى تَفَاؤُلِه ، وَيَنظُـرُ إِلَـى الأُمُورِ بِمِنظَارٍ أَبيَـضَ ، يُؤْمِـنُ بِـالفِكْرَةِ ،

وَيَضَعُ الْخُطَّةَ لِتَنفِيذِ هذِهِ الْفِكرَةِ ، وَيُنَظِّمُ عَمَلَهُ تَنظِيماً تَامًّا . وَبِإِرَادَتِهِ الْقَوِيَّةِ ، وَإِيمَانِهِ بِاللهِ ، يُنَفِّذُ مَشرُوعَاتِهِ وَهُوَ مُتَفَائِلٌ كُلَّ التَّفَاؤُلِ ، وَمُتَأَكِّدٌ كُلَّ التَّأَكُّدِ بِالنَّصرِ فِى النِّهَايَةِ .

قَالَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ بِحَفْرِ الْخَندَقِ (فى غَزْوَةِ الْأَحزَابِ ؛ لِحِفْظِ الْمُسلِمِينَ ، وَمَنعِ الْأَعدَاءِ مِنَ الوُصُولِ إِلَيهِم) . فَعَرَضَتْ لَنَا صَخرَةٌ فِى مَكَانٍ مِنَ الْخَندَقِ ؛ لَا تُؤَثِّرُ فِيهَا الْفُئُوسُ، فَشَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ، فَجَاءَ ثُمَّ نَزَلَ

إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْفَأْسَ ، وَقَالَ باسمِ اللهِ ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً ، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ ، وَقَالَ : " اللهُ أَكْبَرُ ، أُعطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ ، وَاللهِ إِنِّى لأُبْصِرُ (لأَرَى) قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِن مَكَانِى هذَا " . ثُمَّ قَالَ : " باسمِ اللهِ " ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخرَى ، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ ، فَقَالَ : اللهُ أَكْبَرُ ، أُعطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ (بِلادِ إِيرَانَ) . وَاللهِ إِنِّى لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ (مَدِينَةَ كِسرَى قُرْبَ بَغْدَادَ) وَأُبصِرُ قَصرَهَا

الأَبيَضَ مِن مَكَانِى هـذَا . ثُـمَّ قَـالَ باسـمِ اللهِ ، وَضَرَبَ ضَربَةً أُخـرَى ، فَقَلِـعَ بَقِيَّـةَ الحَجَـرِ . فَقَـالَ : اللـهُ أَكـبَرُ ، أُعطِيـتُ مَفَاتَيحَ الْيَمَنِ ، وَاللهِ إِنّـى لأُبْصِـرُ أَبـوَابَ صَنْعَـاءَ (عَاصِمَـةَ الْيَمَـنِ) مِـن مَكَـانِى هذَا".

وَبهذَا الإِيمَانِ ، وَبِالثِّقَةِ باللهِ وَنَصرِهِ ، وَرُوحِهِ الْمُتَفَـائِلِ ، وَشَخصِيَّتِهِ الْكَامِلَـةِ ، وَثَبَاتِهِ النَّادِرِ ، وَمَـا أَعطَـاهُ اللـهُ مِـن نُـورٍ يَرَى بِهِ مَا لاَ يَرَاهُ غَيْرُهُ .

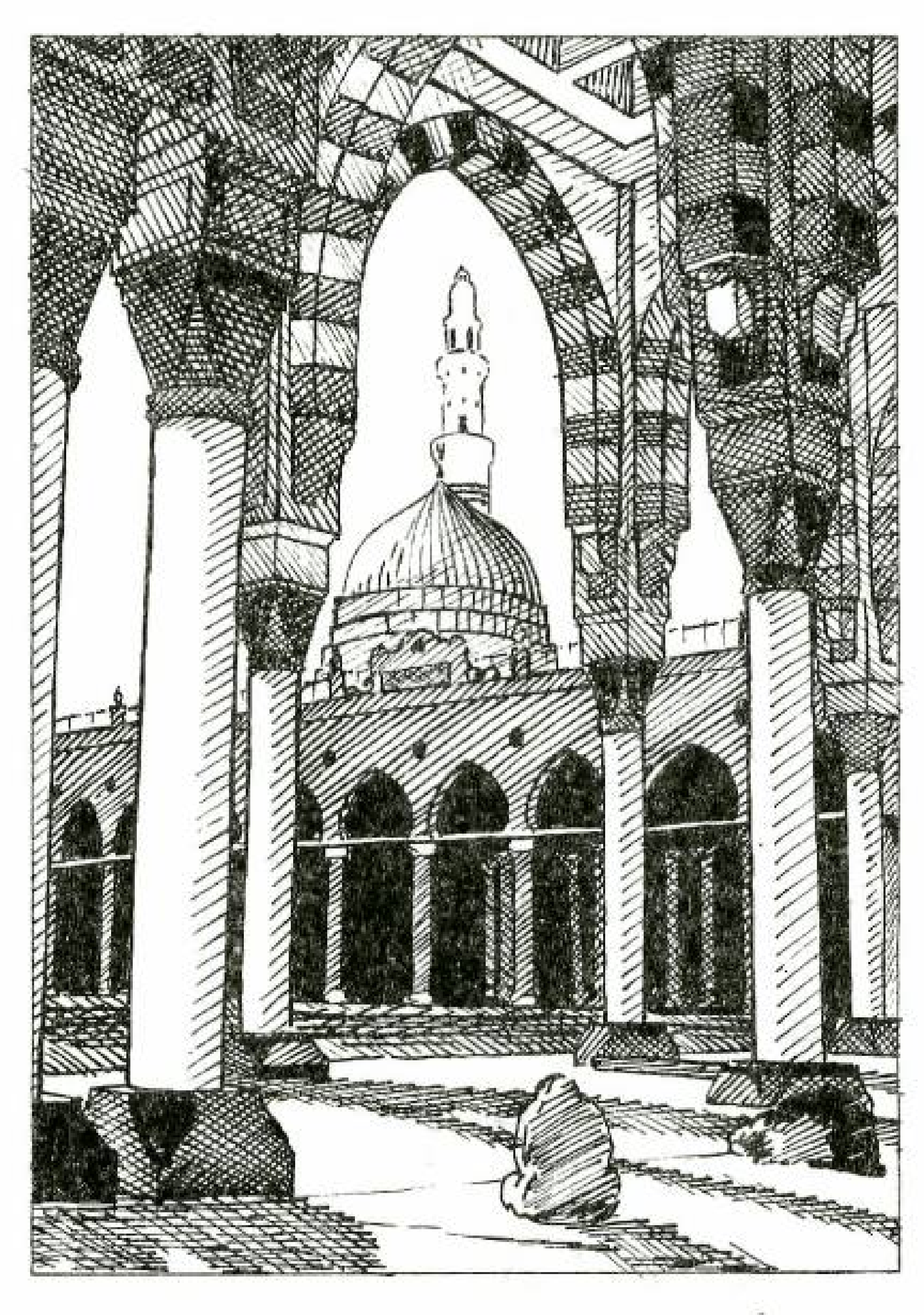
ــ اِطمَـأَنَّت قُلُـوبُ الْمُسـلِمِينَ ،

فَانتَصَرُوا فِى النِّهَايَةِ ، وَفَتَحُوا الْعَالَمَ الْإِسلاَمِيِّ ، وَنَصَرَهُ اللهُ نَصْرًا لاَ مَثِيلَ لَهُ.

الرَّسُولُ يُحْسِنُ مُعَامَلَةَ الْأَسرَى(١) مِنَ الأَعدَاء:

كَانَ مُحمدٌ يُحسِنُ مُعَامَلَةَ الْأَسْرَى مِنَ الْأَعدَاءِ ، وَيَرْأَفُ بِهِم ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَعدَاءِ الْإِسلاَمِ . فَقَد كَانَ عَدِىٌّ بنُ حَاتِمٍ الطَّائِىِّ نَصرَانِيًّا يَكرَهُ الرَّسُولَ كُلَّ الْكُرْهِ ، وَهَرَبَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى لاَ يُسلِمَ . وَحَدَثَ أَنَّ عَلِىَّ بنَ أَبِى طَالِبٍ أَسَرَ أُختَ عَدِىٍّ مَعَ الْأَسْرَى ، وَمَرَّ بِهَا النَّبِىُّ ، فَقَامَتْ

* جَمعُ أَسِيرٍ ، وَهُوَ مَن يُؤخَذُ مِنَ الأَعدَاءِ فِي الْحَربِ .



القُبَّةُ الخَضراءُ بِالمسجِدِ النَّبوِىِّ

إِلَيهِ، وَقَالَتْ : يَارَسُولَ اللهِ ، مَاتَ الوالِدُ، وَغَابَ الرَّافِدُ (أَى الْمعطِى وَالْمُسَاعِدُ وَهُوَ أَخُوهَا) . فَامْنُنْ عَلَىَّ ، مَنَّ اللهُ عَلَيـكَ . (أَى أَنعِمْ عَلَىَّ ، وَخَلِّصنِى مِنَ الْأَسْـرِ). ثُمَّ أَعَادَتْ قولَهَا ، فَتَذَكَّرَ النَّبِـىُّ مَـا كَـانَ لِأَبِيهَـا حَـاتِمٍ قَبلَ الْإِسلاَمِ مِـنَ الْجُـودِ وَالْكَـرَمِ ، فَــأَمَرَ بِإِعْطَائِهَــا الْحُرِّيَّــةَ ، وَكَسَاهَا كِسوَةً حَسَنَةً ، وَأَعْطَاهَا نَفَقَتَهَا، وَأَرْسَــلَهَا مُعَــزَّزَةً مُكَرَّمَــةً مَــعَ أَوَّلِ الْمُسَافِرِينَ إِلَى الشَّامِ. فَلَمَّا قَـابَلَتْ أَخَاهَـا عَدِيًّا هُنَاكَ ذَكَرَتْ لَهُ مَا فَعَلَهُ مُحمـدٌ

مَعَهَا، وَمَا أَكْرَمَهَا بِهِ ، وَالطَّرِيقَةَ الَّتِى بِهَا أَحسَنَ مُعَامَلَتَهَا .

فَرَجَعَ عَدِىٌّ بنُ حَاتِمٍ إِلى الرَّسُولِ ، وَهُوَ مُتَأَثِّرٌ بِنُبْلِهِ ، وَعَطْفِهِ الْجَمِيلِ ، وَمُعَامَلَتِهِ الكَرِيمَةِ لِأُختِهِ حِينَمَا كَانَت أَسِيرَةً . ثُمَّ أَسلَمَ فِى الْحَالِ ، وَانضَمَّ إِلَى صُفُوفِ الْإِسلَامِ وَالْمُسلِمِينَ .

عَظَمَةُ الْمُصطَفَى فِى زُهدِهِ وَقَنَاعَتِهِ :

كَانَ الرَّسُولُ يَستَطِيعُ أَن يَعِيشَ كَمَا يَعِيشُ الْمُلُوكُ فِى قُصُورٍ وَاسِعَةٍ ، وَيَحيَا

حَيَاةً يَجِدُ فِيهَا كُلَّ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ وَالنَّعِيمِ، وَلكِنَّهُ زَهِدَ فِي هذِهِ الْحَيَاةِ ، وَعَاشَ كَمَا يَعيشُ الْفُقَرَاءُ . وَكَانَ قُدْوَةً لِغَيرِهِ فِي أَن يَحرِمَ نَفسَهُ وَأَهلَهُ ، وَأَقرَبَ النَّاسِ إِلَيهِ ، وَيُفَضِّلَ عَلَيهِمُ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُحتَاجِينَ مِنَ الْمُسلِمِينَ.

فَكَانَ يَكتَفِى مِنَ الطَّعَامِ بِالْبَلَحِ وَالْمَاءِ وَخُبزِ الشَّعِيرِ ، وَلاَ يَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ (سَرِيرٍ) مِنَ الْحَرِيرِ ، بَل يَنَامُ عَلَى الحَصِيرِ ، وَيُعطِى الْيَتَامَى وَالْمُحتَاجِينَ كُلَّ

مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَالِ . كَانَ يُفَكِّرُ فِي غَيرِهِ وَيَنسَى نفسَهُ . فَكَانَ مَثَلاً عَالِياً لِلقَناعَةِ وَالزُّهدِ . فِي يَدِهِ خزِينَةُ الْمَالِيَّةِ لِلمُسلِمِينَ وَمَعَ هذَا قَد فَضَّلَ إِعطَاءَ الفُقَرَاءِ ، وَعَاشَ كَمَا يَعِيشُونَ .

وَذَاتَ يَومٍ زَارَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَسُولَ اللهِ فِي بَيتِهِ ، فَوَجَدَهُ نَائِماً عَلَى حَصِيرٍ خَشِنٍ ، وَقَد أَثَّرَ الْحَصِيرُ فِي جَنْبِهِ، وَوَجَدَ عَلَيهِ ثَوباً لَيسَ عَلَيهِ غَيرُهُ ، وَرَأَى مِقدَاراً صَغِيراً مِنَ الشَّعِيرِ فِي نَاحِيَةِ

مِنَ الْحُجرَةِ، فَتَأَثَّرَ عُمَرُ مِمَّا رَآهُ ، وَنزَلَتِ الدُّمُوعُ مِن عَينَيه . فَقَالَ الرَّسُولُ : مَا (الَّذِى) يُبكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟

فَقَالَ عُمَرُ : يَا نَبِىَّ اللهِ ، وَمَا لِىَ لاَ أَبكِى ؟ وَهذَا الْحَصِيرُ قَد أَثَّرَ فِى جَنْبِكَ ، وَلَيسَ عَلَيكَ غَيرُ ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، وَلاَ أَرَى فِى هذِهِ الْحُجْرَةِ إِلاَّ مِقدَاراً قَلِيلاً مِنَ الشَّعِيرِ . وَذلِكَ كِسْرَى (مَلِكُ الْفرسِ)، وَذلِكَ قَيصَرُ (مَلِكُ الرُّومِ) يَعِيشَانِ فِى الثِّمَارِ وَالنَّعِيمِ ، وَالثِّيَابِ الْغَالِيَةِ ، وَأَنتَ

القبةُ الخضراءُ والمنارةُ الرَّئيسيَّةُ

نَبِىُّ اللهِ الْمُختَارُ .

فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : " يَا ابنَ الْخَطَّابِ ، أَمَا تَرضَى أَن تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنيَا" ؟

وَفِى يَومٍ اشتَكَت السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ بِنتُ الرَّسُولِ ، وَزَوجَةُ عَلِىِّ بنِ أَبِى طَالِبٍ، مِن تَعَبِ يَدَيْهَا مِن إِدَارَةِ الرَّحَى ، فَبَلَغَهَا أَنَّ النَّبِىُّ جَاءَهُ بَعضُ الأسرَى ، فَذَهَبَتْ إِلَى أَبِيهَا تَطلُبُ مِنهُ خَادِماً يُسَاعِدُهَا فِى أَعمَالِ الْبيتِ ، فَلَمْ تَجِدْ أَبَاهَا ، فَذَكَرَتْ

ذلِكَ لِلسيِّدَةِ عَائِشَةَ زَوجَةِ النَّبِيِّ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ، فَذَكَرَتْ عَائِشَةُ لَهُ ذلِكَ . فَذَهَبَ الرَّسُولُ إِلَى بيتِ فَاطِمَةَ . وَبَدلاً مِن أَنْ يُرسِلَ إِلَى ابْنَتِهِ خَادِماً ، نَصَحَ لَهَا وَلابنِ عَمِّهِ أَن يَقُولاَ قبلَ النَّومِ : اللهُ أَكبَرُ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ مَرَّةً، وَالحَمدُ لِلهِ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، وَسُبحَانَ اللهِ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ . فَهذِهِ الْعِبَادَةُ لِلهِ خيرٌ مِمَّا طَلَبَاهُ .

الرَّسُولُ وَالْجُوعُ :

وَذَاتَ مَرَّةٍ خَرَجَ الرَّسُولُ الكَامِلُ مِنَ الْمَسجِدِ ، فَوَجَدَ أَبَا بَكرٍ وَعُمَرَ ،

فَسَأَلَهُمَا عَـن سَبَبِ خُرُوجِهِمَـا، فَقَـالا : أَخرَجَنَا الْجُوعُ .

قَـالَ : وَمَـا أَخْرَجَنِـى إِلاَّ الْجُـوعُ .

فَذَهَبُوا إِلَى أَبِى الْهَيثَمِ ، فَأَمَرَ لَهُم بِشَعِيرٍ، وَقَامَ إِلَى شَاةٍ فَذَبَحَهَـا . وَقَـدَّمَ لَهُم مَـاءً عَذْباً مُعَلَّقاً عِنـدَهُ فِـى نَخلَـةٍ . ثُـمَّ أَتَـوْا بِالطَّعَـامِ ، فَـأَكَلُوا وَشَـرِبُوا ، فَقَـالَ الْمُصطَفَى: (سَنُسأَلُ) عَن نَعِيمِ هذَا الْيَومِ .

وَهـذِهِ بَعـضُ الصُّوَرِ مِن زُهـدِ مُحمـدٍ الكَامِلِ ، وَقَنَاعَتِهِ .